مكتبة البنين
قسم الدوريات

جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثامن
١٤٠٥ هجرية - ١٩٨٥ ميلادية

فكر محمد حسين
بين الأصالة والمعاصرة

الأستاذ الدكتور
ماهر حسن فهمي
أستاذ بقسم اللغة العربية

الذي يقرأ البدايات الأولى لثقافة الدكتور محمد محمد حسين ـ أستاذ الأدب العربي بجامعة الاسكندرية ـ قبل أن يتوفاه الله في ديسمبر ١٩٨٢ ـ يحس أنه تعمق الدراسات الأدبية في التراث ، من خلال كتابه عن الهجاء والهجائين في الجاهلية وصدر الاسلام عام ١٩٤٨ وبحثه عن الوليد بن يزيد عام ١٩٤٩ وتحقيقه لديوان الأعشى الكبير ١٩٥٤ وبحثه عن أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة عند الجاهليين عام ١٩٥٩ .

ولكن مرحلة التحول كانت عندما بدأ يؤلف كتابه « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » عام ١٩٥٤ فقد وجد مادة ضخمة عرض أكثرها في كتابه بجزأيه ووجد تيارات عديدة تتلاطم ، ومن هنا بدأ يدرك أن الحاضر يحتاج إلى وقفة ومراجعة . وكان أخطر ماكتبه بعد ذلك هو « حصوننا مهددة من داخلها » وقد نشره أولاً على هيئة مقالات بمجلة الأزهر عام ١٩٥٦ ثم أعاد طبعها مجموعة في كتاب طبع أكثر من مرة وكان له صداه في أرجاء العالم الاسلامي .

كنت قريباً من الرجل ثلث قرن ، فقد تتلمذت على يديه طالبا بقسم اللغة العربية ثم صاحبته خلال دراستي للماجستير والدكتوراه ، فقد كان رحمه الله مشرفاً عليهما . وهو بحكم نشأته في صعيد مصر ، ثم نزوحه إلى القاهرة ثم الاسكندرية ، كان يحس بالفارق الكبير بين بيئتين . وكان كلما ازداد دراسة لأعلام العصر ومفكريه ازداد احساساً بالفارق بين الواقع والمثال ، مثال براق وواقع انساني به الكثير من نقاط الضعف البشري ، حتى وصل في النهاية الى ما يشبه الاحساس بالفجيعة ، ومن ثم شرع قلمه ليشرح من ناحية ويوجه من ناحية أخرى ، وتجلى ذلك فيما أصدره من دراسات بعد ذلك مثل « اتجاهات هدامة في الفكر المعاصر » عام ١٩٦١ و « الاسلام والحضارة الغربية » عام ١٩٦٩ و « فقه اللغة العربية بين الأصالة والتغريب » عام ١٩٨١ . ولكن بقى كتاب « الاتجاهات الوطنية » ومقالاته المجموعة « حصوننا مهددة من داخلها » أقوى ما كتب وأكثرها دلالة على فكره ، وفي الوقت نفسه أكثرها تأثيراً في الناس فقد رأيت عشرات الخطابات التي كانت تصله من أرجاء العالم الاسلامي تحمد له وقفته من أجل كشف واقعنا ومحاولة توجيهه الى الطريق السوى .

وقدر له أن يزور الكويت وليبيا ولبنان والمملكة العربية السعودية أستاذا مقيماً أو أستاذاً زائراً فاتسعت دائرة رؤ يته واتسع اطار تأثيره حتى كان في السنوات الأخيرة من حياته علما من أعلام الفكر الاسلامي ، له مريدوه في كثير من البلاد .

وعندما نريد أن ندرس الخط الفكري لمحمد حسين لابد لنا أن نبدأ من حيث بدأ ، نبدأ منذ القرن الماضي ونسير معه إلى عصرنا هذا . ثم نرى كيف امتحن يوم تصدى لبحث تقدمت به صاحبته للحصول على درجة الماجستير في

القراءات القرآنية ، ورأى فيه جهلاً نتيجة عدم الاختصاص ، أخرج صاحبته عن الجادة ، ودفعها الى اصدار أحكام خاطئة كلها تهدم أركان العقيدة .

ومن الغريب أن الذين هاجموه في الصحف أو حاولوا اصابته في رزقه عن طريق الخطابات المجهولة والمعلومة للمسئولين أخذوا يتزايدون ويتباكون على حرية البحث العلمي ، ويرددون كلام بعضهم كأنهم على اتفاق ، وكأن هذه الرسالة أول أو آخر رسالة ترفض لسبب أو لآخر ، أو كأن اصابة العقيدة والطعن فيها أهون من أن يلتفت إليه حتى لو كان نتيجة الجهل وعدم الاختصاص ، مما أقنعنا أن هناك تجمعات تضع مصالحها الشخصية قبل كل شيء وفوق كل شيء . وصمد الرجل وحده ، وهدأت المعركة بعد حين ، وخرج هو أكثر صلابة ، عازماً على أن يقول كلمته في كل موقف محاولاً تتبع الحركة الفكرية وكشف أبعادها ، والوقوف عند الزوايا المظلمة على وجه الخصوص .

والواقع أنه قد بدأت الدعوة لتطوير المجتمع الإسلامي ببداية هذا القرن في أعقاب الاحتلال الأجنبي للأمة الإسلامية . وهي قد كانت من قبل دعوة للتطور في أعقاب الاحتلال الفرنسي . والتطور حركة طبيعية في الاتجاه الصحيح ، بينما التطوير حركة قسرية أشبه بالقفزات التي لايؤمن معها العثرات . كان محمد على قد قام بفتح المدارس العليا في الطب والهندسة والتمريض والحربية وأرسل البعثات واستقدم الأساتذة الأجانب في هذه التخصصات ، بينما يقوم التراجمة بترجمة دروسهم ، وبذلك يثرون اللغة على الرغم من ارجاء مشكلة المصطلح بلا حلول في أكثر الأحيان .

وتأثر أعضاء البعثات بما شاهدوه في المجتمع الأوربي واضح فيما كتبوه أثناء

اقامتهم في أوربا أو بعد عودتهم منها . ونستطيع أن نلمس ذلك على سبيل المثال في عضوين من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين ، أحدهما مصري أقام بباريس خمس سنوات (١٨٢٦ ـ ١٨٣١) وهو رفاعة الطهطاوي والآخر تونسي أقام بباريس أربع سنوات (١٨٥٢ ـ ١٨٥٦) وهو خير الدين التونسي . ونجد فيما كتبه كل منهما آراء مشتركة ، هي صدى لتفكير القرن الثامن عشر في أوربا ، وفي فرنسا الثائرة بوجه خاص ، وهي آراء تظهر للمرة الأولى في المجتمع الاسلامي وربما ردداها عن حسن قصد دون أن يسبرا أغوارها البعيدة أو يتعمقا حقائقها ، ولكنهما على كل حال قد وضعا البذور التي تعهدها من جاء بعدهم بالسقي والرعاية حتى نمت وضربت جذورها في الأرض . وربما عرضت بعض هذه الآراء عرضا سريعا عاجلا قد يبدو ضيئل الخطر ، ولكن أهمية الطهطاوي وخير الدين ترجع إلى أنهما قد جلبا هذه البذور الغربية وألقياها في التربة الإسلامية . « وللمرة الأولى في البيئة الاسلامية نجد كلاما عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوربا ، الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض ، يراد اتخاذها وحدة وجودية ، يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر ، ليكونا وحدة متكاملة ، ذات شخصية مستقلة ، تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين ، وللمرة الأولى نجد اهتماما بالتاريخ القديم يوجه لتدعيم هذا المفهوم الوطني الجديد ، وللمرة الأولى نجد عند كل من الطهطاوي وخير الدين كلاماً عن الحرية بوصفها حجر الزاوية في نهضة أمة وفي تقدمها . ولأول مرة نجد دعوة الى وضع مدونة فقهية واضحة محددة في صورة مواد قانونية ، على نمط المدونات القانونية الأوربية . ولأول مرة تنقل الى المسلمين النظريات الثورية التي تريد أن تناقش الحكام الحساب فيما عليهم من واجبات ، وتبصر الشعوب بما لهم

من حقوق ، ولأول مرة نرى عرضا للنظم الاقتصادية الغربية التي تقوم على المصارف والشركات ، عرضا يبدو مجردا من التعليق في بعض الأحيان ، ومشوبا بالاعجاب والتساؤ ل عن امكان تطبيقه بين المسلمين في أحيان أخرى . ونرى بعد ذلك كلاما كثيراً عن المرأة لاشك أنه من وحي الحياة الاجتماعية الأوربية مثل تعدد الزوجات وتعليم الفتيات وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين . ويبدو كل ذلك في كتاب الطهطاوي (تخليص الابريز في تلخيص باريز) الذي كتبه أثناء اقامته في فرنسا وعرضه على أستاذه جومار قبل أن ينشره بعد عودته وفي كتابيه اللذين ألفهما بعد ذلك في عصر إسماعيل (مناهج الألباب المصرية) و (المرشد الأمين للبنات والبنين) وهما كتابان تعليميان ألفهما لكي يوضعا بين أيدي الناشئة الذين تزايد فيهم عدد البنات كما هو واضح من عنوان الكتاب الثاني ، وكذلك الكتاب الوحيد الذي ألفه خير الدين التونسي (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) ومن مقدمته على وجه الخصوص . . . . والتجاوب بين الرجلين واضح من اشادة كل منهما بصاحبه »[1] .

ويلاحظ الدكتور محمد حسين أن هذه الآراء لم تكن تشق طريقها في سهولة ويسر خلال المرحلة الأول من مراحل اتصال الاسلام بالحضارة الغربية ، برغم أنها بدأت بعيدة عن أن تمس الاسلام ، بل ان المبادىء الإسلامية في هذا الطور كانت الميزان الذي يوزن به مايراد استحداثه فيقبل أو يرفض ، وكانت دوافع الحكام والمفكرين على النسواء في هذه المرحلة هي طلب القوة للمجتمع

(١) الاسلام والحضارة الغربية د . محمد حسين ـ بيروت ١٩٦٩ ص ١٨/ ٢٠ .

الإسلامي ، وابتغاء الوسيلة الى أسباب النهضة ، التي تخلص المجتمع من ضعفه وجهله وفقره[٢] .

ولم ينته القرن التاسع عشر إلا وقد عظم شأن الاستعمار الغربي واستفحل ، وأصبح جل العالم الإسلامي في قبضة الغرب ، وبذلك دخلت صلات الاسلام والمسلمين بالحضارة الغربية في طور جديد . ولم يكن هدف الاستعمار من محاولة نشر حضارته هو تمدين البلاد التي استعمرها ، ولكنه كان يقصد بذلك ازالة الحواجز التي تقوم بينه وبين هذه الشعوب وهي حواجز تهدد مصالحة الاقتصادية وتجعل مهمة حراستها والمحافظة عليها صعبة غير مأمونة العواقب . كانت هذه الحواجز الناشئة عن الاختلاف في الدين وفي اللغة وفي التقاليد والعادات سببا في احساس الوطنيين بالنفور من الأجنبي المحتل وفي احساس المستعمر بالغربة ، بل الشعور بالخطر الذي يحيط به ، لأن الاسلام لم يكن مجموعة من الطقوس ، ولكنه كان حضارة كاملة . وكان يزيد من الشعور بالغربة وبالخطر أن تاريخ الاسلام والغرب حافل بالصراع منذ ظهور الاسلام . ومن هنا كان التغريب ـ والتبشير فرع منه ـ هو الحل الأمثل ، كما لاحظ اللورد لويد ، وهو يتلخص في تطوير الاسلام نفسه واعادة تفسيره ، بحيث يبدو متفقا مع الحضارة الغربية أو قريبا منها ، أو غير متعارض معها على الأقل[٣] . ومنذ بداية القرن تحول اهتمام المستشرقين عن الدراسات الاسلامية القديمة الى الدراسات الاسلامية الحديثة التي تتابع تطور الفكر الاسلامي والمجتمعات الاسلامية في مختلف بلاد المسلمين ، وهي دراسات موجهة هادفة ، وذلك واضح في كلام H.A.R.Gibb الذي قدم به مجموعة البحوث التي

(٢) الاسلام والحضارة الغربية ص ٥٠

(٣) الاسلام والحضارة الغربية ص ٥٧ وما بعدها .

قام بها عدد من المستشرقين تحت عنوان « وجهة الاسلام » سنة **١٩٣٢** . يقول الدكتور محمد حسين : « وتغريب المجتمعات الاسلامية وتطوير الفكر الاسلامي لاترجع أهميته من وجهة نظر الاستعمار إلى ايجاد التواصل وانشاء علاقات مستقرة أساسها الود والتفاهم وحسب ، ولكنه يرجع من ناحية أخرى إلى مايحاولة الاستعمار من تفتيت الوحدة الاسلامية وما يقدره من أن هذا التطور سوف يأخذ أشكالاً متعددة بحسب ظروف كل بلد . . . فأي صلة سوف تربط المسلم بالمسلم والعربي بالعربي ؟ إن مصدر الخطر أن يفقد الناس الاحساس بالفرق بين ما هو اسلامي وما هو غربي . ان فقدان هذا الاحساس هو النذير بالخطر ، لأنه يعني فقدان الاحساس بالذات . فالجماعات البشرية انما تدرك ذاتها عن طريقين معا : طريق وحدتها التي تكونها المفاهيم والتقاليد المشتركة ، وطريق مخالفتها للآخرين التي تنشأ عن المغايرة والمفارقات ـ ولذلك كان الخطر الذي يتهدد هذه الوحدة يأتيها من طريقين : الشعوبية التي تفتتها ، والعالمية التي تميعها ، فزوال الاحساس بالمغايرة والمفارقة هو هدم لأحد الركنين اللذين تقوم عليهما الشخصية . نريد أن يظل التمييز بين ما هو اسلامي وبين ما هو طارىء مستجلب ـ شرقيا كان أو غربيا ـ حيا في نفوس الأجيال »[٤] .

ولكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومضاد في الاتجاه ، فإذا كان الاستعمار البريطاني قد أنبت حزب الأمة أو حزب أصحاب المصالح الحقيقية كما كانوا يسمون أنفسهم وهم طائفة من الملاك ومن المثقفين أمثال لطفي السيد قد رأوا مهادنة الاستعمار والاستفادة من حضارته في المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية ، فقد كان الحزب الوطني وعلى رأسه زعيمه الشاب مصطفى كامل

(٤) الاسلام والحضارة الغربية ص ١١٩

يرى الوطنية والاسلام شيئاً واحداً ومن ثم كان يرتبط بدولة الخلافة ارتباطاً عاطفياً ، ويقيم توازنا مع الاتجاه الآخر فتسير حركة الحياة في طريق الوسطية .

كانت « الجريدة » تهاجم فكرة الجامعة الاسلامية وتسفه الداعين الى هذا الاتجاه الذي لاسبيل إلى تحقيقه حسب زعمها وهي صحيفة حزب الأمة ، فهي على حد قول الدكتور محمد حسين تنزع عن الوطن صفة القداسة التي يحاول مصطفى كامل أن يغرسها في قلوب الناشئة والمواطنين ، ورجال الحزب ينزعون عن المواطنين صفة الأخوة في الدم أو الدين ، وينظرون الى الوطن نظرة مادية خالصة ، فالمواطنون مجموعة من الناس جمعتهم هذه السوق التي تسمى وطنا وعليهم ان يحرصوا على أن تظل هذه السوق قائمة لاتركد ولا تكسد وعليهم ان يتجنبوا النزاع العنيف ، حتى لايفزعوا البائع والمشتري على السواء ، فتقف سوقهم ، وتبور تجارتهم ويكل ربحهم . . .

وقد دافع مصطفى كامل عن دعوته إلى الجامعة الإسلامية والربط بين الوطنية والاسلام بأن الدين والوطنية توأمان لايفترقان ، وبأن من الخطأ أن يتصور انسان انه لايكون وطنياً إلا اذا تخلى عن الدين ، متسائلا : لماذا يكون الانجليزي وطنياً وبروتستنتينيا في آن واحد ، ولا يكون المصري المسلم وطنياً ومسلمًا ؟ وقد عمل الانجليز على اخماد جذوة العاطفة الدينية الاسلامية حين أيقنوا أنها مصدر خطر محقق ، وأنها المعين الذي لاينضب الفياض ببغضهم والدعوة الى قتالهم . وظلوا يتهمون المصريين بالتعصب الديني ، ويكررون هذه التهمة في كل مناسبة وفي غير مناسبة حتى توهم المصريون أن التعلق بالدين عيب ذميم يجب أن يبرأوا منه وظلت صحفهم وكتابهم يتحدثون عن التسامح وعن الانسانية حتى توهم بعض السذج أن من سمو الخلق وسعة الأفق ورحابة الصدر أن تحب الناس جميعاً حتى المعتدين منهم ، وحتى

المغتصبين الذين يحتلون ديارهم بغير حق ، ولم يزالوا يحدثون المصريين عن المصلحة لينزلوا بالوطنية عن مرتبة العقيدة إلى درجة مادية تزيل عنها كل قداسة ، وتجعلها سعياً وراء القوت ، ومحاولة لتحسين الحال .

وكان من أبرز ما صنعه الاستعمار في الوطن العربي لتمزيق عرى العصبية الدينية وتقطيع أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحداً واحداً ، محاولة اثارة النعرات الاقليمية ، فالمصريون أحفاد الفراعنة ، واللبنانيون أحفاد الفينيقيين والعراقيون أحفاد البابليين والآشويين ، والحجازيون أحفاد العرب وأحق الناس بالقيام على خلافة الاسلام بدلاً من الأتراك ، وكانت العثمانية في ذلك الوقت مع كل ما ابتليت به قوة روحية ، قادرة على جمع كلمة هذه الشعوب باسم الاسلام ضد بريطانيا وضد الدول الاستعمارية ، التي تدرك ما تنطوي عليه تعاليم الاسلام من الحث على الجهاد واعلاء مرتبة المجاهدين في سبيل الله ، والدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة . وقد نجح الاستعمار البريطاني في فرض لغته في الهند بينما أخفق في فرضها في الوطن العربي الذي يربط العربية بالقرآن الكريم(٥) .

ولكن توالى الأحداث في الشرق الاسلامي كان سريع الخطى ، فقد انتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء ، واذا بالكماليين في تركيا يلغون الخلافة بعد أن كانوا قد خلعوا الخليفة . ولأول مرة يرى المسلمون أنفسهم بلا خليفة .

وكان أخطر واجرأ ما ظهر فيما كتب عن الخلافة مما كان صدى لما تلا الحرب من تطورات في تركيا كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لعلي عبد الرازق . ولا

---

(٥) الاتجاهات الوطنية الجزء الأول ص ٩٥ وما بعدها .

ترجع خطورته لدقة في البحث ، فالكتاب يمتاز بجمال أسلوبه ـ كما يقول الدكتور محمد حسين ـ أكثر من امتيازه بالتزامه المنهج العلمي . فهو يعتمد على المستشرقين فيما لا يوثق بهم فيه ، بينما يفرط تفريطاً ظاهرا في الرجوع الى المصادر العربية الأصلية على كثرتها وأهميتها وتوافرها . « ولايكاد القارىء يظفر بفكرة جديدة ، فهو يدور حول اثبات ان الخلافة نظام تعارف عليه المسلمون وليس في أصول الشريعة مايلزم به ، وذلك ما تصدى لبيانه . . . دون أن يقدم الأدلة القوية الواضحة »(٦) .

وانتهت هذه الظروف بمؤلف الكتاب الى المحاكمة . . أما هيئة كبار العلماء ، فأصدرت حكمها في ٢٢ المحرم سنة ١٣٤٤هـ (١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥) وهو يقضي باخراج الشيخ علي عبد الرازق أحد علماء الجامع الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ومؤلف كتاب (الاسلام وأصول الحكم) من زمرة العلماء . وزاد الأمور تعقيداً أن مؤلف الكتاب ينتمي إلى أسرة كانت تعتبر من أركان حزب الأحرار الدستوريين ـ امتداد حزب الأمة ـ الذين كانوا مشتركين في الحكم وقتذاك مع حزب الاتحاد الذي انشأه القصر . وكان يترتب على قرار علماء الأزهر الذي أخرج مؤلف الكتاب من زمرة علمائه أن يفصل من وظيفته ، لأنه يقوم بالقضاء الشرعي بوصفه من علماء الدين ، وقد انتفت عنه هذه الصبغة بذلك الحكم . وكان وزير العدل آنذاك من الدستوريين وهو عبد العزيز فهمي فرفض تنفيذ الحكم ، وعند ذلك عزله الملك ، فاستقال وزراء الدستوريين من الوزارة احتجاجاً على عزله وتضامنا معه .

---

(٦) الاتجاهات الوطنية الجزء الثاني ص ٨٦ .

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب في كل باب منها ثلاثة فصول . الباب الأول في الخلافة والاسلام ويتناول فيه :

أ ـ الخلافة وطبيعتها ب ـ حكم الخلافة جـ ـ الخلافة والوجهة الاجتماعية

الباب الثاني في الحكومة والاسلام ويتناول فيه :

أ ـ نظام الحكم في عهد النبوة ب ـ الرسالة والحكم
جـ ـ رسالة لا حكم ، دين لا دولة .

الباب الثالث في الخلافة والحكومة في التاريخ ويتناول فيه :
أ ـ الوحدة الدينية والعرب ب ـ الدولة العربية جـ ـ الخلافة الاسلامية

ويدور الكتاب كله حول هدم فكرة الخلافة كنظام اسلامي في الحكم ليصل الى النتيجة التي ختم بها كتابه حين أنكر أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظائف الحكم ومراكز الدولة جميعاً من الدين في شي ، ووصفها بأنها خطط دنيوية صرفه لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولا نهى عنها ، وانما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة وقد حاول المؤلف أن يصل إلى هذه النتيجة من كل طريق . فالباب الأول يحاول أن يهدم فكرة الخلافة ويبين قلة جدواها ، فيرد على ما ذهب إليه الفقهاء من اقامة الخليفة واثم المسلمين كلهم بتركه ، زاعمًا إنه لم يجد عليه دليلاً من كتاب الله أو سنة رسوله . ويرمى الفقهاء بأنهم يحملون الألفاظ أكثر مما تحتمل فيما استندوا إليه من نصوص . ثم هو يقر أن الخلافة قامت على القهر والغلبة . ويناقش المؤلف ما يحتج به المحتجون للخلافة من اقامة الشعائر الدينية ـ

وصلاح الرعية متوقف عليها ـ فيقول إن أمور أي جماعة تستقيم بقيام حكومة فيها من أي نوع كانت فشعائر الله تعالى ومظاهر دينه الكريم لا تتوقف على ذلك النوع من الحكومة الذي يسميه الفقهاء خلافة[٧] .

ويعرض في الباب الثاني لطبيعة الرسالة التي تستلزم للرسول نوعاً من الزعامة في قومه وأنّ مقام الرسالة يقتضي سلطاناً يختلف عن سلطان الملوك . فولاية المرسل ولاية روحية وولاية الحاكم ولاية مادية وشتان بينهما .

أما في الباب الثالث فهو يعرض فيه الخلافة الاسلامية والحكومة الاسلامية خلال العصور . ويرى المؤلف أن رياسة الرسول كانت دينية جاءت عن طريق الرسالة ، فلما انتهت الرسالة بموته انتهت الزعامة ـ فبيعة أبي بكر في رأيه بيعة سياسية عليها كل طابع الدولة المحدثة . ويرى أن الصديق رضي الله عنه كان يتحرى أن يحذو حذو الرسول وبذلك أفاض على الدولة مظهراً خيّل للناس من خلاله أن الخلافة مركز ديني .

وليس معنى ذلك أنه لم تظهر في هذه الفترة دراسات غير هذا الكتاب ولم يرد عليه أحد ، فالواقع أن محمد رشيد رضا صاحب المنار قد ألف كتاب « الخلافة أو الامامة العظمى » وأن شيخ الاسلام مصطفى صبري قد ألف كتابه « النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة » ، ويرى الدكتور محمد حسين أن كتاب الشيخ محمد الخضر حسين من أقوى ما ألف في الرد على كتاب عبد الرازق . ولكن عرض كتاب (الاسلام وأصول الحكم) في فكرته الأساسية يوضح نقاط الانطلاق التي كانت تصدم عواطف الأمة ومفاهيمها .

---

(٧) الاتجاهات الوطنية الجزء الثاني ص ٨٩ .

في المرحلة نفسها يصدر سلامة موسى كتابه (اليوم والغد) وهو مقالات نشرت خلال سنوات ١٩٢٥/١٩٢٧ وهدف المؤلف واضح فهو يقول في مقدمته كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي فهي تتلخص في أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا ، فإني كلما ازدادت معرفتي بالشرق ازدادت كراهيتي له وشعوري بانه غريب عني . وكلما زادت معرفتي بأوربا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها . وهذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرا وجهرا فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب . ويضرب الكاتب في هذه المقدمة أمثالا لهدفه فهو يريد حرية المرأة كما يفهما الأوربي ، وهو يريد من الأدب أن يكون أدبا أوربيا ، ثم هو يريد أن تكون ثقافتنا أوربية لكي نغرس في أنفسنا حب الحرية والتفكير الجرىء . وهو يهاجم الدين في المقدمة وفي أكثر من موضع - فهو يريد من التعليم أن يكون أوربيا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه ، وهو يريد أن يبطل شريعة الاسلام في تعدد الأزواج بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة ، وهو يريد أن يقتلع من أدبنا كل طابع شرقي مما يسميه « آثار العبودية والذل والتوكل » .

وهو يهاجم العروبة لأنه يقول في صراحة ان لنا من العرب ألفاظهم فقط ولا أقول لغتهم ، بل لا أقول كل ألفاظهم ، فاننا ورثنا عنهم هذه اللغة ، وهي لغة بدوية لاتكاد تكفل الأداء اذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيها الآن .

وفي مقابل هذا السخط على كل مايمت للاسلام والعروبة نجد ثناء على الغرب لاتحفظ فيه ، ودعوة صريحة الى الاندماج والذوبان فيهم ، فهو يدعونا إلى الارتباط بأوربا ارتباطا قوياً ، نتزوج من ابنائها وبناتها وننظر للحياة

نظرها ، ونتطور تطورها الاجتماعي ، ونجعل أدبنا يجري وفق أدبها بعيداً عن منهج العرب ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها . ويهاجم وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية والأزهر وكل أثر له صلة بالاسلام حتى ملابس علماء الدين وحتى الثقافة العربية نفسها .

« والكتاب كما ترى من هذا خليق أن يثير الناس على صاحبه ويصرفهم عن كل مايقوله . ومن هنا كان الكتاب ـ على خطورة آرائه ـ هين الأثر ـ لأنه يتولى بنفسه مهمة التنفير من نفسه ، هذا إلى أن مهاجمة المؤلف ـ وهو مسيحي ـ للاسلام وللثقافة العربية تدعو القارىء الى أن يشك في قصده ونيته »[٨] .

وإذا كانت الحياة السياسية قد شهدت هذا التوجيه الذي طرحه علي عبد الرازق والحياة الاجتماعية قد شهدت تلك التوجيهات التي طرحها سلامة موسى ، فان الحياة الأدبية قد شهدت في الوقت نفسه في الشعر الجاهلي لطه حسين الذي صدر عام ١٩٢٦ وأثار ضجة هائلة في الصحف وفي المجلس النيابي وتناولت السلطات القضائية مؤلفه بالتحقيق وجمعت نسخه من الأسواق .

وفي يوم ٣٠ مايو سنة ١٩٢٦ تقدم الشيخ حسنين بالقسم العالي بالأزهر ببلاغ للنائب العام يتهم فيه الدكتور طه حسين بأنه ألف كتاباً أسماه « في الشعر الجاهلي » طعن فيه بدين الدولة الرسمي وأتى بما يخل بالنظم العامة وطلب تقديمه للمحاكمة . وبتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٦ تقدم بلاغ آخر للنائب العام من عضو مجلس النواب عبد الحميد البنان يتضمن المعنى نفسه .

---

(٨) الاتجاهات الوطنية الجزء الثاني ص ٢٢٨ .

واتضح من أقوال المبلغين أنهم ينسبون للمؤلف أنه طعن على الاسلام في مواضع أربعة من كتابه :

الأول : أن المؤلف ينكر ما جاء بالقرآن الكريم عن ابراهيم واسماعيل حيث يقول : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثت بهجرة إسماعيل بن إبراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ، ونحن مضطرون الى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة أخرى » .

الثاني : ما تعرض له المؤلف في شأن القراءات السبع المجمع عليها والثابتة لدى المسلمين وأنه في كلامه عنها يزعم عدم انزالها من عند الله .

الثالث : ينسبون للمؤلف أنه طعن في كتابه على الرسول الكريم من حيث نسبه حيث يقول : « ونوع آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر واضافته إلى الجاهليين وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه في قريش . فلأمر ما اقتنع الناس أن النبي يجب أن يكون من صفوة بني هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف وأن يكون بنوعبد مناف صفوة بني قصى وأن تكون قصى صفوة قريش وقريش صفوة مضر ومضر صفوة عدنان وعدنان صفوة العرب والعرب صفوة الانسانية كلها » .

لايرتاب في وجود إبراهيم وإسماعيل وما يتصل بهما مما جاء في القرآن ، ولكنه كعالم مضطر الى أن يذعن لمناهج البحث فلا يسلم بشيء دون دليل علمي فهو يجرد من نفسه شخصيتين ومن ذلك يكون القصد الجنائي غير متوفر[٩] .

وتوالت المقالات في نقد الكتاب ومهاجمة مؤلفه وأرسلت برقيات للحكومة يطالب فيها مرسلوها بطرد مؤلفه من الجامعة ثم لم يلبث الأمر أن تفاقم حين اشترك المجلس النيابي في المعركة فأخذ بعض أعضائه يستجوب وزير المعارف وشغل الكتاب الرأي العام والصحافة والقضاء وممثلي الشعب والبيئات المثقفة كما لم يشغلها كتاب آخر في العصر الحديث ، وتخلف عن هذه المعركة سبعة كتب ستة منها في الرد على الكتاب ونقد ما جاء فيه وهي « المعركة بين القديم والجديد أو تحت راية القرآن » لمصطفى صادق الرافعي و « نقد كتاب الشعر الجاهلي » لمحمد فريد وجدي ، و « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » لمحمد الخضر حسين ، و « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » لمحمد أحمد الغمراوي ، و « الشهاب الراصد » لمحمد لطفي جمعه و « محاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي » للشيخ محمد الخضري والسابع في الرد على مطاعن أخرى للمؤلف ألقاها على طلبته بعد ذلك وهو « نقض مطاعن في القرآن الكريم » لمحمد أحمد عرفه .

وأما كتاب الرافعي فقد كان أسبق هذه الكتب في الظهور ، وجمع فيه ماكتب من مقالات نشرها في الصحف عقب ظهور كتاب في الشعر الجاهلي ولذلك فهو ـ كما يرى الدكتور محمد حسين ـ أصدق هذه الكتب وأدقها في

---

(٩) راجع محاكمة طه حسين تحقيق وتعليق خيري شلبي بيروت ـ الجزء الأول ١٩٧٢ ص ٧٠ .

الرابع : أن المؤلف أنكر أن للاسلام أولية في بلاد العرب وأنه دين إبراهيم .

وهكذا يتضح أن موقف طه حسين في حقيقة الأمر كان جزءا من حركة كاملة لعبت دورها في كافة المجالات . يقول النائب عن نقطة الاتهام الأولى بعد بحثها وعرضها : « ونحن لانفهم كيف أباح المؤلف لنفسه أن يخلط بين الدين وبين العلم وهو القائل بأن الدين يجب أن يكون بمعزل عن هذا النوع من البحث الذي هو بطبيعته قابل للتغير والنقص والشك والانكار . وتطرق المؤلف في بحثه الى الكلام عن مسائل في غاية الخطورة صدم بها الأمة الاسلامية في اعز ما لديها من الشعور ولوث نفسه بما تناوله من البحث في هذا السبيل ولم يوفق الى الاجابة والذي نريد أن نشير إليه انما هو الخطأ الذي اعتاد ان يرتكبه المؤلف في أبحاثه حيث يبدأ بافتراض يتخيله ثم ينتهي بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة كما فعل في أمر الاختلافات بين لغة حمير وبين لغة عدنان ثم في مسألة ابراهيم واسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة اذ بدأ فيها باظهار الشك ، ثم انتهى باليقين . وكل ما استند إليه من الأدلة هو :

١ ـ فليس ببعيد أن يكون .
٢ ـ فما الذي يمنع .
٣ ـ ونحن نعتقد .
٤ ـ واذن فليس ما يمنع قريشا من أن تقبل هذه الأسطورة .
٥ ـ واذن فنستطيع أن نقول !!!

الأمر الثـــاني : من حيث أن المبلغين ينسبون للمؤلف أنه يزعم « عدم انزال القراءات السبع المجمع عليها والثابتة لدى المسلمين » ويقول ان هذه

القراءات » إنما قرأتها العرب حسب ما استطاعت لا كما أوصى الله بها نبيه .
وقد قال الحافظ أبو حاتم ابن حيان البستي : اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة في خمسة وثلاثين قولا (راجع كتاب البيان لطاهر بن صالح الجزائري طبع القاهرة ص ٥٩) . والمؤلف لم يتعرض لمسألة القراءات من حيث هي منزلة أو غير منزلة وإنما قال كثرت القراءات . . وما ذكره المؤلف في هذه المسألة هو بحث علمي لاتعارض بينه وبين الدين .

الأمر الثـــالث : وهو الطعن على الرسول من حيث نسبه ، وكل ما نلاحظه عليه أنه تكلم فيما يختص بأسرة النبي ﷺ ونسبه في قريش بعبارة خالية من الاحترام ، ولا يوجد في بحثه ما يدعوه لايراد العبارة على هذا النحو .

الأمر الرابـــع : يقول حضرات المبلغين ان المؤلف أنكر أن للاسلام أولية في بلاد العرب وأنه دين إبراهيم . وقد قرر المؤلف في التحقيق أنه لم ينكر أن الاسلام دين إبراهيم ولا أن له أولية في العرب وأن شأن ما ذكره في هذه المسألة كشأن ما ذكره في مسألة النسب : رأى القصاص اقتناع المسلمين بأن للاسلام أوليه وبأنه دين إبراهيم فاستغلوا هذا الاقتناع وأنشأوا حول هذه المسألة من الشعر والأخبار مثل ما أنشأوا حول مسألة النسب . ونحن لانرى اعتراضاً على أن يكون مراده بما كتب في هذه المسألة هو ما ذكر ولكننا نرى أنه كان سيىء التعبير جداً في بعض عباراته .

ويجب لمعاقبة المؤلف أن يقدم الدليل على توفر القصد الجنائي لديه ، أي يجب أن يثبت أنه انما أراد بما كتبه أن يتعدى على الدين الاسلامي . وقد أنكر المؤلف في التحقيقات أنه يريد الطعن على الدين الاسلامي ، وأنه كمسلم

تصوير المعركة التي تلت ظهور الكتاب وما جرت به من أطوار وما تخللها من أحداث . والميزة الثانية هي أنه أكثر هذه الكتب حدة وأعنفها في مهاجمة طه حسين لأنه كتب خلال المعركة ولم يكتب بعدها ، كما هو الشأن في الكتب الأخرى[١٠] .

وشملت المعركة بين القديم والجديد كل نواحي الحياة . « وكانت المرأة أبرز هذه الموضوعات وأكثرها اثارة للجدل ، وذلك لسعة الخلاف بين المسلمين ـ والشرقيين عامة ـ وبين الغربيين ، فيما يتصل بها من عادات وتقاليد ، مما لايرجى معه اتفاق الا بفناء أحد المذهبين في الآخر . على أن المعركة لم تكن جديدة فهي استئناف للمسألة التي فتح قاسم أمين بابها في مستهل هذا القرن ، ولكن الناس قد خطوا الى أبعد مما نادى به قاسم أمين . فقد كان الرجل صريحاً في أنه يريد أن يقف بالحجاب عندما أمر الله به ، وأنه يدعو الى أن لا يجور الناس بتجاوز حدود الله ، وستر ما لم ينزل الدين بأنه عورة ، وبحرمان المرأة من العلم وقصرها في البيوت . ولم يدع قاسم قط الى اختلاط المرأة بالرجال ، ولم يدع قط إلى أن تتجاوز كشف النقاب الى الكشف عن الأذرع والسوق والصدور والظهور .

ولكن قاسم أمين وان لم يدع إلى شيء من ذلك ، هو الذي فتح الباب لمثل هذه الدعوات . . . فقد أخذت الأمور تتطور تطوراً سريعاً ، حتى أصبحت دعوة قاسم أمين وقد استنفدت في وقت وجيز كل أغراضها ، فقد خلعت المرأة النقاب ثم استبدلت المعطف الأسود بالحبرة ، ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملونة ، ثم أخذ المقص يتحيف هذه الثياب في الذيول وفي

(١٠) الاتجاهات الوطنية الجزء الثاني ص ٣٠٢ .

الأكمام والجيوب ، ثم لم يزل يجور عليها فيضيقها حتى أصبحت على صاحبتها كبعض جلدها . ثم إنها تجاوزت ذلك كله إلى الظهور على شاطىء البحر في المصايف بما لايكاد يستر شيئاً . ولم تعد عصمة النساء في أيدي أزواجهن ولكنها أصبحت في أيدي صانعي الأزياء في باريس . وقطعت المرأة التعليم الابتدائي والثانوي واقتحمت الجامعة ، مزاحمة فيما يلائمها وفيما لا يلائمها من ثقافات وصناعات وشاركت في الوظائف العامة . ثم لم تقف مطالبها عند حد في الجري وراء ما أسماه أنصارها (حقوق المرأة أو مساواتها بالرجل) . . وكان تيار الحياة يكتسح المعارضين أنفسهم اذ يصبحون وقد أحاط بهم ما يكرهون وما يحاربون في أشخاص بناتهم وزوجاتهم وأخواتهم ، حتى بدا التناقض واضحا بين ما يقولون وما يجري في بيوتهم . . .[11] .

وهكذا انقسم زعماء الاصلاح الى فريقين : فريق ينظر إلى قديم المسلمين والعرب يمجده ويستوحيه ـ وفريق آخر ينظر إلى ما حقق الغرب في حاضره من تفوق يزينه للمسلمين ويدعوهم إلى احتذائه والسير على خطاه . وسرى هذان الأسلوبان في كل شئون الحياة ، فأصبحنا أمام فريقين متقابلين : فريق يدعو الناس الى الثورة على الماضي ، ويدفعهم إلى الجديد دفعا لا رفق فيه ولا هوادة ، ويحملهم عليه حملا لا تدرج فيه .

وفريق آخر يقول : ان علة تأخرنا هي موت ضمائرنا وفتور عزائمنا ، وذلك مالا سبيل إلى احيائه الا بالاسلام الذي يعلم المسلم أن حمل أعباء الحياة أمانة وأن الجهاد لاعزاز المسلمين وتحريرهم فريضة . وكان المعتدلون من دعاة الحضارة الغربية لا يعارضون في تنقيتها وتهذيبها واستبعاد ما يتعارض

(١١) راجع الاتجاهات الوطنية الجزء الثاني ص ٢٤٨ وما بعدها .

منها مع ديننا وتقاليدنا . وكان المعتدلون من دعاة الاسلام لا يعارضون في اصلاح عاداتنا وتقاليدنا واستبعاد الضار منها مما أقحم على الاسلام وليس منه ، ويرون أن التمسك بالدين لا يتعارض مع الأخذ بالنافع من المخترعات والجديد من الدراسات التجريبية والتطبيقية التي تلزم النشء لكي يساير النهضة الصناعية . ولكنهم يفرقون بين ذلك وبين الحضارة والثقافة التي تتصل بالعقائد ولعادات والتقاليد والأذواق وآداب المجتمع وأساليب الحياة وأنماط العيش . فيعارضون أشد المعارضة في أن تكون حضارتنا وثقافتنا صورة من حضارة الغرب وثقافته أو امتداداً له . ولكن المتطرفين من الفريقين كانوا يبلغون في تطرفهم الشطط في كثير من الأحيان . على أن المعركة بين الفريقين هي على كل حال صورة من مظاهر الحركة والحياة في المجتمعات الانسانية والعنصران كلاهما لازمان للمجتمع(١٢) .

ولايكاد يهدأ الصراع بين القديم والجديد في حياتنا حتى يعود من جديد أكثر حدة ، فالمتطرفون من دعاة التجديد والتغريب يهاجمون بقسوة أحياناً ، ويندفعون في سيرهم اندفاعا ، حتى يقف لهم نفر من المحافظين ، ومن ثم يعتدل المسير ويبين الطريق ، وكما كان موقف الرافعي من دعاة التغريب في العقد الثالث من هذا القرن كان موقف « محمد حسين » منهم في الجيل التالي . وقد وضحت أقوى صور هذا الموقف في كتابه « حصوننا مهددة من داخلها » .

يقول في مقدمة الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ : « هذه كلمات كنت قد نشرتها في مجلة الأزهر خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة . . . وقد كان الذي دعاني الى كتابة هذه السلسلة من المقالات ، أني رأيت الالحاد والانحلال في هذه الأيام

---

(١٢) الاتجاهات الوطنية الجزء الثاني ص ٢٠٩ .

يشتعل ويسرى سريان النار في يابس الحطب ، ورأيت دعاته يستفحل أمرهم في كل مكان ، ورأيت الناس مشغولين بالجدل والنقاش حول ما يثيرونه من موضوعات يسترون مآربهم الهدامة من ورائها تحت أسماء خلابة كالنهضة والتحرر والتطور ومتابعة ركب الحياة . وهي موضوعات منوعة تشمل الحياة في شتى نواحيها ، يخترعونها ثم يهولون من شأنها حتى يلفتوا اليها أنظار الناس ، وحتى ينشأ جيل جديد مرنت أذنه منذ وعي على سماع المناقشات حول هذه الموضوعات فيتوهم أنها مشكلات حقيقية لابد لها من حل ، ويتجه في أغلب الاحيان الى أنصاف الحلول التي ترضى الطرفين المتخاصمين حسب وهمهم والخاسر في حقيقة الأمر هو صاحب الحق ، والربح كله للباطل وأصحابه . . . والجدير في أمر هؤلاء الدعاة أن شرهم لم يعد مقصوراً في هذه الأيام على الكلام . فقد انتقلوا من مرحلة الكلام الى مرحلة العمل بعد أن نجحوا في التسرب الى الحصون التي تحمي قيمنا ، وأصبح كثير منهم في مناصب تمكنهم من أن يدسوا برامجهم وخططهم . . . من أجل ذلك كتبت هذه الكلمات لمجلة الأزهر ، ثم أعدت نشر مجموعة من هذه الصفحات . كتبتها لألقى الأضواء على الذين يعملون في الظلام ، وأكشف الستر عما يدبرون في الخفاء . ولأفضح دسائسهم التي يلقون عليها حجبا كثيفة من الرياء والنفاق ، حين يندسون بين صفوف العاملين على بعث معالم شخصيتنا واحياء شعائرنا ، يتظاهرون بالغيرة على اسلامنا وعلى عروبتنا ، حين تنطوي ضمائرهم على فساد العقيدة . . .

كتبت هذه الصفحات حين كتبتها لكي أفضح هذا النفر من المفسدين وأنبه الى ما انكشف لي من أهدافهم وأساليبهم التي خدعت بها أنا نفسي حينا من الزمان مع المخدوعين . وقد كان مصابي هذا في نفسي وفي تفكيري مما جعلني

أقوى الناس أحساسا بالكارثة التي يتردى فيها ضحايا هؤلاء المفسدين .

ومن الواضح أن هذه الصفحات لا تستقصى نشاط الهدامين ولاتستوعب كل ميادينهم ولا تحصيها عدداً . ولكنها تقدم نماذج منها تكشف عن أساليبهم في الدس والتزييف والهدم والتخريب ، وهي أساليب لا يقتصر شرها على بلد دون بلد ، فهي تعم بلاد العرب ، بل بلاد المسلمين ، بل الشرق كله ، يسقونه السم على حين نهضة حتى لا تصح له نهضة ، وليقودوه إلى الهاوية التي يوشك الغرب كله - شرقية وغربية - أن يتردى فيها . وسيعلم القارىء أن أصبع الصهيونية العالمية الهدامة التي تطمع في أن ترث الأرض وتستعبد كل من عليها لليهود من وراء هذه الدعايات والدعوات . ولذلك لم يكن من قصدي في هذه الصفحات أن أقنع الذين أنبه الى خطورتهم ، فأكثر هؤلاء دعاة وليسوا طلاب حق ، ولايخرجهم من ضلالهم الا أن يرزقهم الله الهداية ويشرح صدورهم للايمان . ولكن أكثر قصدي في هذه الكلمات كان الى الشباب خاصة ، أنبههم إلى ما قد يخفى عليهم . . . ولست أبالي أن يكون المنتفعون بهذه الكلمات والذين يعونها حق الوعي قلة من الناس »(١٣) .

وبعد هذا المدخل يقسم كتابه الى مجموعة من البحوث « في الدراسات النفسية والاجتماعية » ثم « في الفن والثقافة » و « في التنظيم الاجتماعي » و « في جامعة الدول العربية » (في الكتب المترجمة - في المؤتمرات) ثم « في مناهج اللغة والدين في التعليم العام » و « في الجامعة » و « حول الدراسات اللغوية » و « حول بحث جامعي في قراءات القرآن » وأخيراً في « الدراسات الاسلامية » فيتناول « الشرق الأدنى ، مجتمع وثقافة » ثم « الاسلام في

(١٣) حصوننا مهددة من داخلها د . محمد حسين ص ١٠ وما بعدها - بيروت - ١٩٧١ .

العصر » . وبذلك يكون قد غطى جوانب عديدة من الفكر المعاصر في اتجاهاته المختلفة .

ويبدأ بحثه الأول بتمهيد يذكر فيه أن الدول لاتسود ولا تعلو بالحديد والنار ولا بالمال ما لم يكن وراء ذلك كله رابط متين يجمع أهل البلاد ويشد بعضهم إلى بعض . وأعلى هذه الروابط وأدومها أثراً وأعمقها جذوراً هو الدين الذي يوحد العادات والأمزجة على ألوان معينة من غذاء النفوس . واللغة هي الوعاء الذي يشمل كل ذلك ، لذلك كانت المعاهد والمؤسسات التي تقوم على صيانة الدين واللغة هي بمثابة الحصون والمعاقل التي تسهر على حمايتنا وسلامتنا . وكانت العناية بأمرها خليقة أن تنال من اهتمامنا مثل ما تناله العناية باعداد العدة الحربية والصناعية بل أشد .

ثم ينتقل الى كتاب أصدرته الجامعة الأمريكية - بيروت في يوليو ١٩٥٦ يحتوي على محاضرات في نظام التربية هي تسجيل لما دار في مؤتمر دعت إليه تلك الجامعة واشترك فيه جماعة من كبار المسئولين عن التربية في مصر وسوريا والعراق والأردن ولبنان وقد لفت نظره أن هؤلاء المدعوين قد ظلوا في ضيافة المؤتمر أربعة شهور كاملة ، ويعجب القارىء للسخاء الذي أنفقت به الأموال على هذا المؤتمر وأمثاله خاصة اذا عرف أن مؤسسة روكفلر هي التي قامت بكل النفقات (وجد هذه الأسرة جوهان روكفلر - يهودي ألماني . وكل أفرادها يمولون المنظمات اليهودية المختلفة في أمريكا) . وهو يطيل الحديث في أهداف هذه المؤسسات التي تسعى إلى توثيق الصلات بذوى النفوذ ومن ثم السيطرة على توجيه المجتمع . ثم يربط بين هذه المؤسسة ومؤسسة فرانكلين ، ويضرب مثلا بكتاب واحد من كتب مؤسسة فرانلكين وهو العدد الثاني عشر

من سلسلة دراسات سيكولوجية التي أشرف عليها الدكتور عبد العزيز القوصي وهو بعنوان (الطفل والأمور الجنسية) وجاء في ص ٤٦ منه : « ان الكثير من الآباء اليوم لايكترثون للظهور مجردين من الثياب أما أطفالهم » ثم يعلن قائلا : « أرأيت الى الذين يريدون أن يعودوا بنا إلى الهمجية الأولى والجاهلية الجهلاء ، هل ترى فرقاً كبيراً بين مذهبهم هذا وبين مذهب الذين يمارسون العرى في مدن العراة[١٤] ؟ » وجاء في ص ٧٨ من الكتاب نفسه : « ان خروج الفتيات في صحبة الفتيان من الأمور الطبيعية التي يستطيع معظم الآباء تقبلها ـ في الوقت المناسب على أي حال ـ باعتبارها جانباً من جوانب النمو الجسمي للمراهق » . ويستطرد الكتاب الى أبعد من ذلك بكثير فيما يتصل بالعلاقة بين الجنسين والحديث عن الحاجات الانسانية سواء أكانت عضوية أم اجتماعية .

ثم يعلق الدكتور محمد حسين قائلاً : « وبعد فهذه الدعوات وأمثالها مما تنزعج له لأنه ينافي الدين والخلق القويم ومما نسميه نحن بذاء أو فجوراً ويسميه أصحابه علما ويضعونه تحت عنوان جميل اسمه علم النفس ويغوون الناس باسم العلم فيما فشل فيه التبشير والدعوات الهدامة طوال قرن من الزمان ـ نعم ، هذا البذاء وهذه الدعوة السافرة إلى هدم الخلق ونقضه والقضاء على الحياء الذي لايقوم بغيره مجتمع ولاخلق ولا دين ، واشاعة الفاحشة بين خلق الله تسمى عندهم علما . . . والتجارب والاحصاءات ليست هي الوسيلة الصحيحة لتقرير الحقيقة في مذاهب الناس وسلوكهم ، لأنها محدودة بحدود الزمان والمكان والحواس ولذلك لم يكن هناك مندوحة من الأستناد في التنظيم الاجتماعي والتقنين التربوي الخلقي الى الشرائع

---

(١٤) حصوننا مهددة من داخلها د . محمد حسين ص ٤١ .

السماوية ، لأن موضوعها هو هذا التنظيم وجمع الناس عليه ، أما العقل فميدانه المسائل المادية الخالصة كالهندسة والكيمياء ، وكل ما اصطلح الغربيون في هذا العصر على تسميته بالـ Science . . . جمع الدين الناس على قيم الخير ومثله ، وهي قيم موحدة متفق عليها ، ثم جاء هؤلاء الباحثون باسم علم النفس والاجتماع ففرقوا الناس ومزقوا وحدتهم وشككوهم في قيمهم ، ثم لم يستطع واحد منهم أن يجمعهم على مذهبه . . . وليس يفهم من ذلك كله أننا ندعو إلى مصادرة البحوث النفسية والاجتماعية والأخلاقية ، فذلك مالا يدعو إليه عاقل يؤمن بنعمة العقل والتفكير ، ولكن الذي ندعو إليه هو أن ندرك حق الادراك مدى طاقتنا العقلية والفكرية فنقيد أنفسنا في هذه البحوث بقيود الدين . فنحن اذن لا نعطل العقل ولكننا نحفظه من الضلال ونلزمه أصولاً وقواعد هي كالسور الذي يعصم السالك في الظلام من التردي في الهاوية وهي مثل قوانين المنطق التي لا يعتبر التزامها حداً للتفكير ولكنه عصمة له ، وهي مثل الدستور الذي لا يعتبر تقيد المشرعين به في كل ما يشرعون حداً من سلطتهم ولكنه ضمان لهذه السلطة أن لا تزيغ عن القصد .

ونحن ان احتجنا إلى الاستفادة من خبرة الغرب وتفوقه في الصناعات الآلية التي كانت سبباً في مجده وسيادته ، فمن المؤكد أننا في غير حاجة إلى استيراد قواعد السلوك والتربية والأخلاق »[١٥] .

وإذا كان طه حسين فيما سبق قد حاول في مقدمة لكتاب « في الشعر الجاهلي » أن ينسلخ من كل موقف ديني أو خلقي أو وطني قبل أن يبدأ بحثه من أجل الوصول للحقيقة المطلقة ، فقد رأى محمد حسين بعد جيل أن هذا

---

(١٥) حصوننا مهددة من داخلها د . محمد حسين - ص ٤٦ - وما بعدها .

الانسلاخ في الأبحاث التي تتصل بالقيم والأعراف قد يقود إلى مزالق شديدة وقد يوجه توجيهاً سيئاً تحت ستار أو آخر ، ولذلك رأى أن الحقائق في هذه البحوث الانسانية ليست مطلقة ولكنها محكومة باطار الزمان والمكان والقيم والمثل والدين ، وهذه القيم هي الدستور الذي يقي الباحث فيها من أخطر المزالق .

ويتناول في مقالة تالية بعنوان « في التنظيم الاجتماعي » موضوع الاختلاط . ويرى أن هذا الاتجاه جزء من اتجاه أكبر يراد به فرنجة المرأة الشرقية وحملها على أساليب الغرب في شتى شئونها : في الزواج وفي الطلاق وفي المشاركة في العمل وفي الزي وفي المحافل والمراقص . وهذا الاتجاه بدوره جزء من اتجاه أكبر يراد به سلخنا من آدابنا الاسلامية وتشريعاتنا الاسلامية والحاقنا بالغرب في الموسيقى والرسم والأدب والتشريع .

والقرآن (سورة النساء آية ٢٥ - ٢٧) ينهى عن عقد الصلات بين الرجال والنساء واتخاذهن صديقات على نحو ما يحلو لبعض الناس في هذه الأيام أن يسميهن تقليداً للغربيين (Girl Friend) . ويقول تبارك وتعالى ان « الصبر خير » بينما يسمى الفرويديون الصبر وضبط النفس والتحكم في الرغائب والشهوات كبتا .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون جميع خلقه من ذكر وأنثى . تجد ذلك في الحيوان وفي النبات وفي الظواهر الطبيعية كالكهرباء والمغناطيس . ومن طبيعة الأزواج في كل هذا الخلق أن تتجاذب وهو جزء من قانون عام لاسبيل إلى تجنبه وليس من المطلوب اضعافه . واطلاق الأمر في تجاور الرجل والمرأة واختلاطهما لايخلو من أحد أمرين : أما أن يؤدي إلى اثارة الرغبات في الجنسين وزيادة حدتها أو يؤدي إلى أضعافها وكسر حدتها . فإذا أدى إلى زيادة

الحدة ولم تكن هناك حدود ونظام تحول الأمر إلى فوضى وعند ذلك يشيع الأذى بين الناس بشيوع الأمراض وتتكاثر الأحقاد بين الذين أوذوا والذين آذوا الأعراض ، وبين المتنازعين والمتنازعات على الرجل أو المرأة ، وذلك كله مما لاتسعى إليه جماعة تنشد الوحدة والسلام . أما الفرض الآخر فيترتب على أن الف النفس للشيء وتكرار اعتيادها اياه يضعف أثره فيها . أليس هذا هو ما يسمى بالبرود ؟ ثم أليس البرود مرضاً يسعون به إلى الأطباء . وهو غير الحالات المرضية الشديدة التي تعرض النوع البشري للفناء بانقطاع النسل يستتبع ضعف النسل وتخلفه . ومما يتفق مع هذا المذهب في النتيجة ـ وان اختلف معه في التعليل ـ ما يذهب إليه علماء الوراثة من التنبيه إلى خطر زواج الأقارب ثم يعقب قائلاً : « وأنا أعلم أن كثيراً من الناس لايقع منهم الدليل موقع الاقناع الا اذا نسب إلى الغرب . وإلى هؤلاء أسوق عن الاستاذ بيتريم ساروكين مدير مركز الأبحاث بجامعة هارفارد في كتاب له صدر أخيراً بعنوان (الثورة الجنسية) حيث يقرر أن أمريكا سائرة بسرعة الى كارثة في الفوضوية الجنسية كما يقرر أنها متجهة إلى الاتجاه نفسه الذي أدى إلى سقوط الامبراطورية الاغريقية ثم الرومانية . . »[١٦] .

وينتقل إلى الترجمة بجامعة الدول العربية ، فيرى أن الجامعة قد حادت عن طريقها حين اختارت مالا فائدة منه بل انها اختارت ما يضر لاما ينفع وأنفقت أموال العرب انفاقا أقرب إلى الاتلاف . فيتوقف عند « قصة الحضارة » لديورانت الذي ترجمته الادارة الثقافية . وقبل أن يتناول الكتاب يؤكد أن العرب لم يغلبوا من ضعف في الفلسفة ولا الآداب ولا التاريخ . ولكنهم غلبوا وضربت عليهم الذلة لأنهم متخلفون في العلوم التجريبية المادية بكل فروعها

(١٦) حصوننا مهددة من داخلها د . محمد حسين ـ ص ٨٦ وما بعدها .

الكيميائية والطبيعية والميكانيكية ، النظرية منها والتطبيقية . ولايبلغ العرب درجة الأستاذية في هذه العلوم التي أذلهم عدوهم بتفوقه عليهم فيها إلا اذا أصبحت ملكا لهم . وهم لايملكون هذه العلوم ولا يحسون أنها علوم عربية الا اذا قرأوها بالعربية وكتبوها بالعربية . وسيظلون يحسون أنهم غرباء عليها متطفلون على أصحابها حتى يقوموا بتعريبها والاضافة اليها .

وينتقل الى الكتاب (الجزء الحادي عشر ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥) أثناء حديثه عن المسيح ، فيرى المؤلف يتساءل ان كان قد وجد حقاً ، ويشكك في نسبه وينكر كل معجزاته ، ثم يعقب الدكتور محمد حسين قائلاً : « وأكثر هذه المفتريات التي حشدها ذلك الصهيوني الهدام في كتابه مروية عن المؤرخ اليهودي يوسيفوس »[١٧] .

وبمثل هذا الأسلوب الالحادي عالج المؤلف حياة نبينا عليه السلام في الجزء الثالث عشر ففيه أخبث أساليب الكيد والدس وهو لايلجأ إلى الأسلوب البذيء الصريح الذي فعله مع شخص المسيح ، ولكنه يتظاهر بالانصاف ، مع أنه لايروي عن الرسول الا الغرائب يخلعها من سياقها وظروفها حتى تبدو لغير الخبير بالتاريخ الاسلامي في صورة تثير السخط وتدعو الى الاشمئزاز ، كالذي يصف المجرم وهو يساق إلى القتل ويخفى ما اجترم من مفاسد . تجد ذلك في كلامه عن قتل امرأة وعن قتل شيخ ، ومثل ذلك عن ضم صفية ـ وهي فتاة يهودية في السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة ـ إلى نساء النبي (ص ٣٩) . فمثل هذه الألغام ـ كما يقول الدكتور محمد حسين ـ التي يدسها الرجل في أثناء سطوره تترك أسوأ الأثر في نفوس القراء الغربيين وضعاف النفوس من المسلمين ، هل هذا تاريخ ؟ أم أنه تشنيع في صورة خطيرة لأن

---

(١٧) حصوننا مهددة من داخلها د . محمد حسين ص ١٩٠ .

صاحبه يتظاهر بالاتزان والانصاف . ومن أمثله الأسلوب الخبيث وصفه الرسول بأنه كان يعني بمظهره ويقضي في تلك العناية كثيراً من الوقت يتعطر ويكتحل ويصبغ شعره ويصفه بأنه كان قلقا عصبي المزاج - ويرى الدكتور محمد حسين أن هذا الأسلوب المسموم في التصوير انما يريد أن يصور الرسول في صورة المتصابي وفي صورة المضطرب الأعصاب . ويكمل ديورانت حديثه (هاجرت الى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفي أهلها من الطعام ، وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أني وجد . ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالاغارة على القوافل المارة بالمدينة) ويحاول المؤلف أن يلبس حديثه ثوب العلم . ويعلق الدكتور محمد حسين قائلا : (أترى إلى هذا الكلام المسموم الذي يصور المسلمين الأولين في صورة عصابات اللصوص وقطاع الطرق ، فينقلب ذلك النفر الكريم من المجاهدين الأولين في نشر كلمة الله ، الذين لم يكونوا يبالون بحياتهم الدنيا في سبيل ما أعده الله لهم من ثواب الجهاد في نشر دينه إلى هذا المستوى)[١٨] .

أما البحث التالي من البحوث التي تناولت جامعة الدول العربية فهو خاص بالمؤتمرات في اطار التعاون بينها وبين الهيئات الثقافية الدولية ويتوقف عند المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية الذي عقد بدمشق ١٩٦٥ ويتوقف عند دعوة أحمد حسن الزيات الى دراسة عاميات الأقطار العربية المختلفة لاقرار ماهو مشترك فيها سواء صح في معاجم اللغة وكتبها أو لم يصح واقتراح احمد عبد السلام مندوب حكومة تونس الخاص بأن تؤلف المجامع اللغوية لكل قطر

(١٨) حصوننا مهددة من داخلها د . محمد حسين ص ١٩٥ .

معجماً صغيراً لايتضمن الا الألفاظ العربية الفصيحة التي بقيت مستعملة بمعناها الأصلي في لغة ذلك القطر وتوصيه معلمي الأحداث والعامة بالاقتصار عليها قدر المستطاع . ويؤيد أن يشتغل عدد من علمائنا باللغات العامية وأن يدرسوها دراسة دقيقة .

ويعقب الدكتور محمد حسين قائلاً : « وأول مايلفت النظر في هذه الكلمات والمقترحات ما انحدرت اليه مجامع اللغة العربية من ترويج الدعوات المريبة إلى تطوير اللغة وقواعدها ورسمها . . . ولكنهم في كل الأحوال وعلى أختلاف الأسماء يعنون شيئاً واحداً هو التحلل من القوانين والأصول التي صانت اللغة خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد فضمنت لجيلنا وللأجيال المقبلة أن تسرح بفكرها وأن تمرح في معارض فنون القول وآثار العبقريات الفنية والعقلية لاتحس قيود الزمان ولا المكان ، فكأنما القرآن قد أنزل فينا اليوم وكأنما شعراء العربية وفقهاؤها وفلاسفتها وكتابها وأطباؤها وورياضيوها وطبيعيوها وكيميائيوها على اختلاف أزمانهم قد كتبوا ماكتبوا وألفوا ما ألفوا في الأمس القريب ، وكأنما المتنبي أو البحتري يخاطب جيلنا لا تمييز بينه وبين شاعر معاصر كالبارودي أو شوقي أو حافظ وكأنما الرصافي يكتب شعره للقاهريين ، وكأنما الشابي يكتب شعره للشاميين وكأنما شوقي يخاطب بشعره أهل المغرب ، وهذه ميزة من الله بها علينا ولم تحظ بمثلها أمة من الأمم ، فإذا تحللنا من القوانين والأصول التي صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة تبلبلت الألسن وأضاف كل يوم تطلع على الناس شمسه مسافة جديدة توسع الخلف بين المختلفين حتى يصبح بين الشامي والمغربي مثل مابين الايطالي والأسباني . . . وتصبح قراءة القرآن والتراث العربي الاسلامي كله متعذرة على غير المتخصصين من دارسي الآثار ومفسري الطلاسم ، وعند ذلك يصبح كل

جهد سياسي أو حربي أو أدبي مما يبذل اليوم في جمع شمل العرب عبثاً لاطائل تحته . . .

« أما مازعمه علي حسن عوده في المؤتمر من أن هدفنا هو توحيد العامية والفصحى وجعلهما لغة واحدة فهو خطأ أساسي في تصور الموضوع ، فليس مطلوبا أن تصبح لغة الحديث والأسواق والتعامل بين الناس هي نفسها لغة الشعر والأدب والعلم والفلسفة ، لأن التعامل يحتاج إلى لغة سريعة الوفاء بالغرض ، ولكنه لايحتاج إلى لغة دقيقة كحاجة العلم اليها ، ولا يحتاج إلى لغة جميلة مؤثرة كحاجة الشعر والأدب عموماً اليها . اذ يكفي في لغة التعامل أن يفهم بعض الناس عن بعض من أقرب طريق وأخصره . وقد يستعين المتعاملون على اتمام مافي العامية من قصور باشارات اليدين وبتلوين نغمة الكلام وتنويعها ، وبالتعبير بقسمات الوجه . ومن الواضح أن لغة الأسواق لاتناسبها لغة راقية معقدة التركيب ، لأن قواعد اللغة الراقية تضيع وقت المتعاملين الذين لايحتاجون للدقة أو الجمال حاجتهم إلى السرعة . فاستعمالهم الفصحى في التعامل يشبه استعمال الموازين الدقيقة التي يوزن بها الذهب والأحجار الكريمة في وزن الخبز والملح . . . وقواعد اللغة الفصحى تجعل تطورها بطيئاً ، بينما لغة التعامل والأسواق تسد حاجات متغيرة يطرأ عليها كل يوم جديد لم يكن بالأمس . أما لغة الأدب فهي سجل لحالات عقلية ونفسية ثابتة متصلة ، من الخير أن نحرص فيها على صلة الخلف بالسف ، لكي ينتفع بتجاربه . فنحن نقرأ ما كتب في الأدب منذ آلاف السنين فنجد فيه صورة من تفكيرنا الراهن لذلك فالأدب محتاج إلى لغة أكثر استقراراً لتحقيق هذه الصلات بين القديم والجديد . . . ومع ذلك كله فالأدب بطبعه متعة

عقلية وروحية ، وليست المشكلة مشكلة ألفاظ فحسب ، ولكنها مشكلة الأفكار والأخيلة التي تحتاج إلى مستوى ثقافي معين . .

« المهم هو أن يحرص العرب على استعمال لغتهم العربية في كل الميادين ، فتحرص الأذاعات والصحف ومنابر العلم عامة والجامعات خاصة والقضاء والمؤتمرات على اللغة الفصحى ، هذا هو السبيل الطبيعي للتطور . . . فالحوشى يموت بطبعه كما يذهب كل باطل وكل ثقيل وكل مستهجن غير صالح ، لأن الأدباء والشعراء والعلماء ينفرون من استعماله . وهؤلاء هم في الحقيقة صناع اللغة ، وهم الذين يقومون بمهمة التصفية . ومن ورائهم الذوق العربي العام الممثل في جمهور القراء والرواة . . وإذا كان هناك من يوهمون الناس بأن هناك خطراً على العربية الفصحى أن يهجرها الناس الى العامية اذا لم تخضع لما يريدونه في تطور . . . فالذي ينقض هذا الزعم الباطل هو الواقع المشاهد الذي أثبت أن العربية قد عاشت جنبا إلى جنب مع هذه اللهجات المحلية أكثر من ألف عام حتى الآن .

وهذه الدعوة لم تنشأ الا في ظل استعباد الغرب لبلاد العرب والمسلمين وفي حضانة التبشير ، ويكفي أن أذكر على سبيل المثال أسماء سبتا W.Sbitta وفولارز K.Vollers وباول S.Powell وفيلوت D.C.Pliilott وبوريان M.Bouriant وما سبيرو M.Mospero الذين قادروا هذه الدعوة »[١٩] .

ثم ينتقل إلى بحث في قراءات أعد ليكون رسالة للماجستير بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، وهو بحث أشرف عليه وناقشه ثلاثة من أساتذة اللغة العربية ، اثنان من أعضاء المجمع ، والثلاثة بدأوا حياتهم بالدراسة في الأزهر

(١٩) حصوننا مهددة من داخلها د . محمد حسين ص ٢١٢ وما بعدها .

وان لم يتموا دراستهم فيه فأحدهم أكمل دراسته بكلية الآداب والآخر بالقضاء الشرعي والثالث بكلية دار العلوم . وقد أقرت اللجنة منح الدرجة العلمية للطالبة واشترطت الا يطبع الا بعد تعديل بعض اجزائه . وقد تقدم الدكتور محمد حسين بمذكرة إلى عميد الكلية وإلى مدير الجامعة يطلب فيها التوقف عن منح الدرجة فاستجابت الجامعة وتوقفت عن منح الدرجة . عند ذلك ظهرت المقالات التي تهاجم الدكتور محمد حسين وتغرى به الدولة وتتهمه بالرجعية وبعداوة الثورة والتقدمية وكانت لأكثر من أربعة عشر أستاذاً جامعياً وقانونياً بعضهم ممن صور له الأمر على أنه توريط لصاحبة البحث في تهمة الالحاد بقصد ايذائها وبعضهم ممن تربطهم صلات بأعضاء اللجنة مانحة الدرجة وبعضهم ممن تورطوا فيما لاعلم له به وبعضهم من محبي الظهور .

والمذكرة الأولى التي رفعها الدكتور محمد حسين للجامعة تقوم على اعتراضين أساسيين : أولهما : أن قسم اللغة العربية ليس مختصاً باعداد بحوث تتصل بالقرآن جملة وبالتجويد القرآني على وجه الخصوص لأن تلاميذ القسم وأساتذته على السواء غير مزودين بالأدوات التي تسمح بتوجيه البحث أو تناوله على مستوى الدراسات العليا . والثاني : هو أن الطالبة نتيجة للاعتراض الأول ، قد وقعت في أخطاء فادحة نتيجة للجهل والتعرض لما لاتعرفه وهي أخطاء تمس العقيدة وذلك بما زعمته وأكدته في أكثر من موضع من أن القرآن الذي يتعبد به المسلمون ليس منزلاً من عند الله ، أو هو منزل من عند الله بمعناه لا بلفظه وهو مالم يجرء أحد من المسلمين على القول به ، بل لم يجرء الملاحدة على الجهر به في وطن إسلامي . . والتعديل الذي تزعمه الطالبة بوضع كلمة مكان كلمة هو تعديل في الصياغة وهو بالتالي تعديل في

المعنى يترتب عليه تعديل في التشريع وفي العقيدة نفسها وهو في الوقت نفسه تعديل في الصفة البلاغية .

ومع ذلك كله فالبحث يقوم على المجازفة المنافية للمنهج العلمي وهي مجازفة لاتحمل الا على الجهل أو سوء القصد ، فالقضايا العلمية لاتقوم على مجرد التوهم ولا سيما اذا كانت تتصل بدين الدولة وبمقدسات الأمة . ان القضية ليست حرية البحث كما يزعم الذين يحتمون بهذا الاسم فحرية البحث مكفولة في الحدود التي لايتعرض معها المجتمع للخطر باثارة الفتن والتشكيك في الدين ومصادره وفي الحدود التي لاتتحول عندها إلى عدوان على حقوق المؤمنين ، ولكن القضية في حقيقتها هي قضية عدم اختصاص[٢٠] .

وآخر بحوث الكتاب في الدراسات الإسلامية ـ وهو يتوقف أمام كتابين كل منهما حصيلة مؤتمر شارك فيه عدد من الباحثين المسلمين مع عدد من الغربيين المهتمين بالدراسات الاسلامية . والأول عنوانه « الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة » نشرته مؤسسة فرانكلين وهو مجموعة البحوث التي ألقيت في مؤتمر دعت إليه جامعة برنستون ومكتبة الكونجرس . وقد شارك في هذا المؤتمر بالاضافة إلى الباحثين المسلمين من كل البلاد عدد من القسس الأمريكان الذين يحترفون التبشير مثل . ميلر بروز ـ أستاذ الفقه الديني الانجيلي بجامعة بيل ود . هارولد سمث ـ أستاذ ونائب رئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية أوهايو كما شارك فيه بعض مستشاري وزارة الخارجية الأمريكية مثل د . روفائيل باتاي الذي كان مستشارراً في شئون الشرق الأوسط ، ود . نبيه فارس الذي كان رئيساً للقسم العربي بادارة المخابرات الحربية بمدينة يورك وغيرهم .

(٢٠) حصوننا مهددة من داخلها د . محمد حسين ص ٢٩٨ وما بعدها .

ومن الواضح أن أهداف الامبريالية العالمية هو اخضاع الاسلام للتطوير بحيث يصبح أداة لتبرير القيم الغربية ، وهذا التطوير لابد أن يحدث بأيدي المسلمين أنفسهم . أما الدعاوي الهدامة التي يقصد بها اضعاف الثقة في الاسلام فتجدها في مثل مقالة القسيس ميلر بروز حين يطالب بوضع « تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والحياة الآخرة » موضع بحث في اطار علم النفس وفي ضوء مفهوم الحدس . وهو بذلك يجعل التدين مسألة ذوقية . ونجدها كذلك في مثل ما يزعمه القسيس هارولد سمث من أن جميع الصياغات اللفظية نسبية ولذلك فهي غير معصومة ويجب تعديلها بين حين وآخر .

أما محاصرة الدين لتضييق دائرة نفوذه وقصرها على شئون العبادات فهي موجودة في مثل عرض القسيس هارولد سمث لما يسميه (نظرية ضياكوك ألب في فصل الدين عن الدولة) وضياكوك ألب هو واضع الأسس النظرية للدولة التركية الحديثة . ومن الواضح أنه إذا سمح لقسيس بأن يقترح مواضيع البحث الاسلامي وطرائقه فمعنى ذلك أن توجيه الفكر الاسلامي قد أصبح في يد القسس . ومن أساليبهم في هذا التطوير ـ كما يقول الدكتور محمد حسين ـ أن يستدرجوا المسلمين للكلام في نقاط معينة من نظم الشريعة التي تخالف ما استقر عليه عرف الغربيين ، وذلك لكي يلجئوهم إلى تحريف نصوص القرآن ، وأكثر ما نجد ذلك في المرأة وما يتصل بشئونها مثل ما نجده في مقال د . منير القاضي عميد كلية الحقوق ببغداد الذي يزعم أن الاسلام قد أسس للمرأة حقوقا في الحكم فلم يفرق بينها وبين الرجل في سائر الأحكام ومنح النساء حق المبايعة لرئيس الدولة كالرجال . ويستشهد لذلك بآية من القرآن الكريم يوردها مبتورة : « يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك فبايعهن »

وتمام الآية : « يا أيها النبي اذا جاء المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينكم في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » ـ الممتحنة ١٢ وواضح من الآية أنَ البيعة هنا هي عهد من النساء بالتزام الطريق المستقيم . وفساد قول الباحث واضح لأن رئاسة النبي لم تكن قائمة على هذه البيعة ولا هي مستندة الى انتخاب البشر .

وجهود الغربيين في محاولة تطوير الشريعة الإسلامية وبالتالي تطوير المسلمين واضحة في هذا المؤتمر في مثل بحث د . فضل الرحمن الهندي الذي قسم الاسلام إلى اسلام كلاسيكي واسلام حديث . والدكتور آصف فيظي سفير الهند السابق بمصر الذي يرى ان قوانين الشريعة يجب أن تخضع لأساليب التقنين الحديث والاصلاح المعاصر الذي يستفيد من الفلسفة ، وعلم النفس ، بل والفكر المسيحي واليهودي . والدكتور صبحي محمصاني المحامي اللبناني يدور كل بحثه حول الدعوة لتطوير الشريعة الاسلامية وتجنب المزج بين الدين ومعايش الدنيا ، ويسلك لذلك سبلا مختلفة ، فهو تارة يشكك في أهمية الحديث الشريف وتارة أخرى يحقر التراث الفقهي ، وطوراً آخر يسفه المحافظين ويتهمهم بأنهم يقفون في وجه الأخوة الانسانية . أما الدكتور أمين فارس فهو ينادي بأن الدراسات الاسلامية يجب أن تسير على نمط دراسات المستشرقين فيما يسميه المنهج العلمي ـ والذي يقرر هذا الوجوب لاصلة له بالأسلام . والدكتور محمد كفراوي السكرتير العام لوزارة الشئون الدينية في أندونيسيا يقرر أن وزارة الشئون الدينية وضع أستحدثته أندونيسيا ليكون وسطا بين فكرتين متعارضتين : هما النظام الاسلامي والنظام العلماني ، كما يصرح بأن الحكومة تعين المساجد والكنائس على قدم المساواة وتحمي النشاط

التبشيري الأجنبي منه والأندونيسي . هذه نماذج من البحوث الاسلامية التي تؤكد أن الغرب جاد في فرنجة الاسلام عن طريق الذين يحتلون مراكز القيادة والتوجيه في العالم الاسلامي[٢١] .

هذه هي الخطوط العريضة لاتجاهات الفكر الاسلامي كما رسمها وعبر عنها الدكتور محمد حسين ، وهي تتعدد من خلال تعدد مراكز الرؤية ، فهي مرة تتناول بعض الشخصيات مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وقاسم أمين وطه حسين ولطفي السيد وغيرهم كما تمثل ذلك في « الاتجاهات الوطنية » وهو يحاول أن يلقى الأضواء الكاشفة التي توضح موقف هؤلاء المفكرين من الثقافة الغربية والتراث الإسلامي ، ومحاولتهم وغيرهم عرض الفكر الغربي عرضاً جذاباً حينا مثل قاسم أمين أو التهجم على الأصول الإسلامية حيناً آخر مثلما فعل طه حسين ، أو التوفيق بين الحضارتين مثلما نرى عند الأفغاني ومحمد عبده ، وكما صور لنا الدكتور محمد حسين .

ومن أهم الاتجاهات التي وقف عندها مفكرنا الإسلامي هو موقفه من الغزو الفكري الذي خصص له كتابه « حصوننا مهددة من داخلها » فأوضح مافي المؤتمرات والكتب المؤلفة والمترجمة من سم رآه في الدسم ، وحاول جاهداً أن يذود عنا وأن يحصننا ضد هذه السموم ـ وهو في موقفه هذا يقف وقفة صلبة من كل خطر يشمه من بعيد .

على أن الرأي الآخر يمكن أن يلقى الأضواء على أبعاد الموقف ، فالكاتب الاسلامي ـ أحمد بهجت ـ يرى أن الذين يهاجمون الأفغاني ويلقون الظلال على نسبه ـ وهو يعني هنا في المقام الأول لويس عوض في مقالاته التي نشرها

---

(٢١) حصوننا مهددة من داخلها د . محمد حسين ص ٣٣٠ وما بعدها .

بالأهرام - إنما يستهدفون تحطيم النماذج الشامخة الثائرة عند المسلمين ، حتى تكون أثداء أوربا هي المكان الوحيد الذي يرضع منه المسلمون[٢٢] وهكذا تغيم الرؤية عن عيوننا برهة نرى فيها رأيين مختلفين لشخصية اسلامية واحدة وتحليلين مختلفين إلى حد التناقض . وننتقل إلى شخصية أخرى وهي شخصية طه حسين ، فنرى الدكتور أحمد هيكل عميد كلية دار العلوم - وهو من الباحثين المحايدين الذين لهم جهود في الفكر الإسلامي - يقول ان طه حسين اراد أن يقول ان الكتب السماوية ليست عند الجميع مصادر تاريخية ، أي أنها مصادر تاريخية عند من يؤمنون بها . وهذا حق ولكنه لم يقل هذه الحقيقة بطريقة مقبوله ، ولكنه قالها باندفاع غير محسوب وعدم توثيق - وهو يقصد مقولته في كتاب الشعر الجاهلي - ولعله أراد أن يحرك الركود في الفكر آنذاك ، فلكي يسلم الناس جميعاً مؤمنين وغير مؤمنين بحقيقة تاريخية ينبغي أن تقدم اليهم وثائق تقنعهم جميعاً[٢٣] .

ولعل مقولة الأستاذ الشيخ محمد الغزالي في هذا الشأن تلقى ضوءاً أكبر ، فهو صديق للدكتور محمد حسين وهو معجب به وهو مفكر اسلامي معروف ، ولكنه يختلف معه ، وفي ذلك يقول « أذكر أنه جمعتني أيام طيبة بالمغفور له الدكتور محمد محمد حسين ، وهو رجل خبير بالتيارات الأدبية الحديثة ، وله غيرة مشكورة على الاسلام ، وأكن له في نفسي احتراماً كثيراً ، سمعت منه كلاما لم أتجاوب معه . قال : ان شعار الحرية والأخاء والمساواة اختراع يهودي ، وان اليهود هم صانعو الثورة الفرنسية عن طريق محافلهم الماسونية وان النظام الجمهوري نفسه يكاد يكون من صنع اليهود ، وهؤلاء اليهود

(٢٢) مجلة المجلة ١٩ نوفمبر ١٩٨٣ .

(٢٣) الهلال ديسمبر ١٩٨٣ .

المكرة من وراء الثورة الشيوعية في روسيا سنة ١٩١٧ . قلت في نفسي : ولعلهم كذلك صانعو هيئة الأمم المتحدة ، ما أحقهم بالحياة اذا كانوا ـ مع قلتهم ـ بهذا الحجم الضخم وبذلك الأثر العميق . واستطرد الحديث ليتناول مبدأ الأمة مصدر السلطة وكيف أنه مبدأ غير اسلامي ، وتحدث الرجل عن جمال الدين ومحمد عبده حديثاً مليئاً بالسخط والزراية وقال : انهما ماسونيان . قلت : أحب أن أرجىء الحديث عن الأشخاص وأكترث بالحديث عن المبادىء . ليكن فلان شيطاناً رجيًما أو ملاكاً كريماً فذاك يعنيه عند ربه ، وما تنفعه شهادتي له ان كنت مخدوعاً فيه . اذا كان شعار الحرية والإخاء والمساواة من صنع عباد الشيطان ، فماذا صنع عباد الرحمن ؟ وإلى أين تتجه الطبقات التي تشعر بالعبودية والنبذ والظلم ؟ يا صديقي ان الشعار عظيم ، قل : اليهود يتاجرون به . وقضية ان الأمة مصدر السلطان لا تعني أكثر من وضع حد للحق الالهي في الحكم الذي زعمه ملوك أوربا لأنفسهم ، أي أنه لاحق لأبي بكر في الخلافة لو لم تختره الأمة اختياراً عبر عن رغبتها الحرة »[٢٤] . وما يقوله الغزالي هو ما كان يدعو إليه جمال الدين ومحمد عبده وهو علة ما لاقيا من عنت .

وتحت عنوان « شبح أسم الغزو الثقافي » يحكي زكي نجيب محمود قصة رمزية سمعها تحكي عن سلطان جزيرة يقيم وحده في برج مغلق عليه ، وعلى الرغم من ذلك فقد رأى أو خيل إليه أنه رأى شبحا لرجل مفزع الصورة ضخم الجثة وقف ليقول للسلطان ان غزوة وشيكة سوف تقلب نعاسكم يقظة وغفلتكم صحوة . فلما سأله السلطان مرعوباً : من أنت ؟ وماذا! تريد أن تقول ؟

قال : ما ينفعك من أكون ؟ سل عراف المعبد ينبئك الخبر اليقين .

(٢٤) الدوحة ـ يناير ١٩٨٤ ص ١٥ .

وسأل السلطان عراف المعبد ، فقال له العراف : أعرف ياسيدي ، فهو آت من بلد بعيد . هو في الأصل اسمه ثقافة ولكنكم أطلقتم عليه اسم الغزو الثقافي فقبل التحدي . ثم يفسر لنا هذه الرموز فيقول : أما الجزيرة الصغيرة فترمز للعزلة التي نحيا اليوم في ظلمتها ، فباستثناء الصفوة الذين يتابعون تيارات الفكر في العالم الذي شاء له الله أن يكون مبدع الحضارة ، فإن أصحاب الصوت المسموع لجماهير الشعب في واد والعالم المتقدم في واد آخر . أما سلطان الجزيرة فيرمز لأولئك الذين أمسكوا بزمام الجماهير . وأما الشبح المخيف الذي هاجم السلطان فهو موجود في أوهام السلطان ومريديه ، لأنه خطر عليهم بما يحمله من العلم مالا يعلمون ومن الأدب مالا يتذوقون . انها حالة تنتاب الرؤوس في مراحل الضعف لكنها تختفي في مراحل القوة ، انظر الى العرب الأوائل ، لقد فتحوا ثغورهم جميعاً لكل ثقافة تأتي من خارج حدودهم أيا كان مصدرها ، وهي ان لم تأتهم أتوا بها لأنهم كانوا أصحاء . وأما عراف المعبد فهو يرمز إلى الفئة المباركة التي تعرف الأمر على حقيقته وهي في المعبد ، تعرفه وهي مؤمنة بربها وبنفسها تعرفه وهي على صلة بخالقها وباريها[٢٥] .

وهكذا يتضح أن التطرف من جانب لايقابل الا بالتطرف من الجانب الآخر - فلكل فعل رد فعل مساوله في القوة ومضاد في الاتجاه - ومن خلال هذا الصراع الذي يأخذ مداه يظهر تيار الاعتدال الذي يعيد التوازن الى حياتنا ، وكما قال المرحوم الدكتور محمد حسين : لاخطر في الصراع ، ولكن الخطر الحقيقي في زوال الصراع . لقد كان موقفه الفكري نابعاً من احساسه بالخلخلة الثقافية في حياتنا بين القمة والقاعدة ، فأراد أن يلفت النظر وأن يعيد التلاحم بين رأس الأمة وجسدها لتنبعث من جديد ممتلئة صحة وعافية .

(٢٥) الأهرام ١٩٨٣/١٠/٣١ .